ورقة بحثية بعنوان :

التوظيف الإعلامي في سورة يوسف

إعداد

الدكتور زكريا بيتية

2019

لا شك أن جميع سور القرآن الكريم على قدر كبير من الأهمية والإعجاز وهي جميعها تحمل كمّاً كبيراً من المضامين والقيم والرسائل والأهداف والإعتبارات التي لا تدركها العقول البشرية مهما أعملت من التفكير .. كيف لا وهي قول الله تعالى الذي لا يعتريه الباطل وهي ماضية إلى الأبد بقدر لامتناهي من الإعجاز ..فمن قصص الأنبياء إلى قصص الصالحين فمنهج الدعوة في الترغيب و الترهيب إلى منهج المناقشة والحجاج إلى منهج الدعوة عبر تقديم الأدلة و منهج التحدي عبر المعجزات إلى منهج المقارنة بين أهل الحق وأهل الباطل فمنهج الأخبار، أخبار السلف و المعاصرين و أخبار المستقبل فأخبار الجنة والنار و أخبار الكون والخلق إلى التحدي في الخطاب الإعلامي و أساليب الدعاية والحرب النفسية ،كل ذلك في صياغة غاية من الإعجاز في الخطاب القرآني الذي يستمر عبر الأزمنة ماضياً في إحقاق الحق المبين .. "**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**".[1]

تتناول هذه الورقة البحثية سورة يوسف في محاولة لإكتشاف أو استعراض بعض ما فيها أو ما يظهر للباحث منها ــ وهو العاجز الفقير إلى الله تعالى ــ من الصور الإعلامية خاصّة أنها مليئة بالصور والأحداث والتطورات ما جعلها . والله أعلم .

من أحسن القصص : "**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**"[2].

ومع ذلك فإن إشارات عديدة تدل على أن سورة يوسف هي من السور القصصية المميزة ويكفي أن نشير في هذا الصدد أن قصة سيدنا يوسف عليه السلام لم ترد في غير سورة بالمقارنة مع بعض غيرها من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين التي رويت في أكثر من سورة .. ما يجعل من سورة يوسف فريدة في أكثر من إعتبار ..

ابتداءً وقبل الحديث عن سورة يوسف وما بها من عظمة وصور لا بدّ من الحديث عن الإعجاز في القرآن الكريم فقد تنبه المسلمون لأهمية الإعجاز في القرآن الكريم في وقت مبكر وأعطوه عنايتهم وكانت بدايات تلك الاهتمامات منصبة على الإعجاز البياني[3] لأنه الأظهر في إقامة الحجة زمن النبي ﷺ على الإعجاز البياني لما كان العرب يتمتعون به من فصاحة وبيان، ولذا كان القرآن الكريم في إقامته للحجة عليهم بمثابة الآيات الحسية التي أعجز بها الأنبياء أقوامهم، يقول تعالى :" **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**" [4]

ولما وقعت الفتوحات الإسلامية ودخلت أمم جديدة في الإسلام كالفرس والرومان .. وكانت لها حضاراتها التي نقلوا بعضها إلى الثقافة الإسلامية ثم توسع في ذلك حتى ترجمت كتبهم إلى العربية ودخلت مصطلحاتهم إلى تراثنا الإسلامي، تصدى لهذا الوافد الجديد بعض العلماء بالرفض وعدم القبول بادئ الأمر[5]إلا أن قوة هذا الاتجاه ودعم السلطة له وظهور علماء مؤمنين به مكن له حتى أصبح فيما بعد اتجاهاً عاماً ، يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في هذا الصدد

---

[1] سورة الأنعام ، الآية 38

[2]سورة يوسف، الآية: 3

[3] المصلح، عبد الله بن عبد العزيز، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار جياد للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، جدة،2011، ص: 12، نقلاً عن : تفسير عبدالرزاق 328/2 وتفسير الطبري 309/12

[4] سورة العنكبوت: الآية 51

[5] المصلح، مرجع سابق، نقلاً عن مجموعة الفتاوى، 7/9

:في أيام المأمون كانت جميع المؤلفات توجد فيها عبارات وإصطلاحات منطقية لا يفهمها إلا من له إلمام بها ولا يفهم الرد على المنطقيين فيما جاءوا به من الباطل إلا من له إلمام بفن المنطق ..ثم قال : ولا شك أن المنطق لو لم يترجم إلى العربية ولم يتعلمه المسلمون لكان دينهم وعقيدتهم في غنى عنه، كما استغنى عنه سلفهم الصالح ولكنه لما ترجم وتعلم .. كان ينبغي لعلماء المسلمين أن يتعلموه وينظروا فيه ليردوا حجج المبطلين بجنس ما استدلوا به[1]فلذلك قبل العلماء هذه المصطلحات واستعملوها بعد أن نقحوها مما يخالف المعتقدات الشرعية. أما المصطلحات التي لم تكن معروفة من قبل سواء منها ما يتعلق بالعقائد والأصول أو التفسير أو النحو أو البلاغة فهي أخف من ذلك، بل عدت سمة بارزة من سمات التجديد والإبداع الثقافي في حضارتنا الإسلامية الواقعية وذلك لعدم مخالفتها أصول الشرع ومقاصده ولغته العربية.

إلّا أن جيل الشباب المعاصر الذي بات يستعجل المعلومة، يستعجل الحصول عليها كما يتستعجل استثمارها، ثم يستعجل الإنتقال منها إلى غيرها، ولم يعد يعنيه كثيراً الغوص العميق في معاني المواقف والآيات كما كان الجيل السالف من آبائنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فقد يكون من الضرورة بمكان أن يجتهد العاملون للدعوة إلى الله على إيجاد طرق وأساليب أكثر سرعة وأكثر سهولة في الوصول إلى فهم الشباب الذين بلا شكّ يشكلون مستقبل هذه الأمّة .. والإعجاز العلميّ أحد أهم الأنساق التي يُعمل عليها بكلا الإتجاهين .. لذا يأتي الطرح المبسط للفهم وللإعجاز في قراءة آيات الله تعالى في كتابه الكريم ضمن هذا السياق الذي يسهل القراءة والفهم لمجريات الأمور وهو بلا شكّ لا يتنتقص بأي شكل من الأشكال من عمق المعنى أو الهدف المراد من كلمات الله تعالى وحاشى لله أن يعتري كلماته نقصاً وإنما النقص في العبد الفقير ..

تتجلى المعاني العامّة لسورة يوسف في العرض الدائم الذي يقدمه كتاب الله تعالى للصراع بين الحق والباطل، بين الشر والخير، بين الكفر والإيمان، بين الهدم والبناء، بين التنمية والاستهلاك، بين الاستثمار والاستهلاك، بين التدبير والتواكل... كل هذه المعاني وغيرها تقع فيما يزيد عن مئة من الآيات التي تتناول الصور بأبهى أشكالها وصورها.. وفي قوالب إعلامية غاية في الدقة .. غاية في التوظيف.. فالوظيفة الإخبارية حاضرة بامتياز والوظيفة التربوية موجودة في كل آية من الآيات، والوظيفة التنموية ماثلة للعيان، ثم الوظيفة الترويجية (أو ما يعرف بالتسويق) حتى وظيفة التسلية والترفيه فهي قائمة في السرد القصصي، فالرواية ذاتها لا تزال تحير القارئ في كلّ مرة يقرأها فينظر إلى معان وجوانب لم يكن قد تنبه لها من ذي قبل، وستعمل هذه الورقة البحثية على استعراض مجموعة من الجوانب والمضامين التي فتح الله تعالى على كاتبها محاولة منه في استقراء ما يمكن رصده من القوالب الإعلامية الظاهرة .. والله تعالى أعلم وهو الهادي إلى سواء السبيل .

الوظائف الإعلامية:

لا بدّ ابتداءً أن نعرض لفلسفة الوظائف في العملية الإعلامية فالوظائف تتحدد في الدور الذي تلعبه الرسالة الإعلامية بين كل من المرسل والمتلقي عبر المهمة التي تحققها وتنجزها خاصة في إطار التغيير المنشود والمتحقق عند المتلقي، والتغيير هذا إما تثبيت لموقف مسبق ، أو هو زعزعة لموقف مسبق، أو تغيير في الموقف من إتجاه لإتجاه آخر .. فلا ثبات في المواقف حتى لو بقي الإنسان على موقفه فهو سيكون قد عززه في هذا الثبات وذلك تبعاً للموقف المسبق الذي يكون

[1] المرجع السابق، نقلاً عن آداب البحث والمناظرة، ص:5

المستقبل قد اتصف به.. وهكذا تأتي الرسالة الإعلامية لتتناول هذا الموقف في التغيير السلبي أو الإيجابي وهنا تأتي الوظيفة الإعلامية التي على المرسل عادة أن يحددها لتكون ماثلة عند صناعة الرسالة الإعلامية .. مع الإشارة أن الوظائف قد تعمل مع بعضها البعض وليس بالضرورة أن يكتفي المرسل بوظيفة واحدة دون الأخرى .

وتأتي دراسة وظائف الإعلام لضرورة أملتها الحاجة إلى بناء نظام إعلامي متميز لا يتحقق إلا بتحديد جملة من الوظائف التي يتطلب القيام بها ، ذلك أن من الأمور المسلمة بها أن النظام العام لم يزل أحد الأنظمة الأساسية في بناء المجتمع[1]بل وإن ذلك بات يتطور مع ازدياد التطورات التكنولوجية وازدياد الاعتماد على وسائل التواصل الإجتماعي وما تحمله من رسائل إعلامية بقوالب وأشكال متعددة يعكف العديد من دارسي الإعلام والإتصال على تفكيك آثارها وكيفية التعامل معها .

ينطلق الإعلام هنا من منطلقه ويتوجه بتوجيهه ويستجيب لمتطلباته في إطاره وهو في ذلك كله متأثر به ومؤثر فيه وخاصة التأثير المتبادل بينه وبين أنظمة المجتمع الأخرى حيث لا يستطيع نظام إعلامي في أي مجتمع تأدية وظائفه بمعزل عن الأنساق الإجتماعية التي تتحكم بالمجتمع ومن خلال وظائفه تلك يحكم له أو عليه، و يقاس نجاحه بما يحققه من توافق في المنطلق والأداء مع بقية أنظمة المجتمع الأخرى ومن هنا كان انطلاق الإعلام في البعقيدة والقيم ضرورة يفرضها المنطق قبل الدين[2]، ومن هنا أيضاً تبرز أهمية النظام الإعلامي في الدين الحنيف ما يبرز ديناً متميزاً في الشكل والمضمون.

معنى الوظيفة لغة :

الوظيفة لغة مأخوذة من مادة وظف وتجمع على وظائف ووظف وهي ما يعين من عمل أو طعام أو رزق وغير ذلك والوظيفة العهد والشرط وربما بمعنى المنصب والخدمة[3].

معنى الوظيفة في الإصطلاح العام:

تستعمل كلمة الوظيفة بمعناها العرفي وهو عمل المرء الدائم الذي تكلفه إياه الدولة وما في معناها فيسمى القضاء الوظيفة والكتابة وظيفة والحراسة وظيفة والتعليم في المدارس وظيفة وهكذا..

معنى الوظيفة في الإصطلاح الإعلامي:

الوظيفة هي ما يلقى على اجهزة الإعلام من مهام وواجبات ومسؤوليات تشكل في مجموعها نظاماً إعلامياً متكاملاً له منطلقاته وأهدافه وتوجهاته ورسائله وهي في جملتها لا تخرج عن إيصال المعلومات والحقائق والآراء والمواقف والعواطف والإتجاهات إلى الناس تنويراً وإرشاداً وتوجيهاً أو مراقبة البيئة وربط الإستجابة ونقل الثقافة من جيل إلى جيل كما يقول لاس ويلد. [4] وهذا ما يعني في لغة الإعلام الديني الإسلامي البشارة والنذر وهداية الناس ، ومن البديهي أن تكون أهداف النظام

---

[1]الشنقيطي،سيد محمد ساداتي، وظيفة الأخبار في سورة الأنعام، دار عالم الكتب، الرياض،1990، ص: 110.

[2]المرجع السابق.

[3]المنجد في اللغة والاعلام، دار الشروق،بيروت،ص:10907.

[4]الشنقيطي، سيد محمد ساداتي، وظيفة الإخبار في سورة الأنعام،مرجع سيق ذكره.ص:112.

الإعلامي هي عينها الأهداف الكبرى التي يسعى المجتمع بكافة أنظمته ومؤسساته إلى تحقيقها والتي يمكن إرجاعها إلى أصول كبرى تتمثل في ترسيخ عقيدة التوحيد في النفوس وتحقيق السيادة لشرع الله وتثبيت رسائل رسل الله تعالى في أقوامهم وبناء مجتمع طاهر نقي عف كريم وشمولية في الإعلام بدين الله أو هي في تركيز شديد تدعيم السلام وتعميمه. [1]

ومع أنه قد تم التمييز بين الوظائف الإعلامية أثناء تناولها في البحوث ذات العلاقة فلا بدّ من الإشارة بوضوح إلى أن الفصل بين وظائف الإعلام هو في الواقع فصل نظري لأنها متداخلة يصعب في كثير من الأحيان وضع حدود فاصلة بينها . [2]

وهنا نعرض لمجموعة من الوظائف الإعلامية: الأخبار، التربية والتعليم، التوجيه والإرشاد، تعميق الوعي، التنمية الحضارية، التثقيف والتنوير، التجييش والتعبئة، الترويج والإعلان، التسلية والترفيه.

على أن مجموعة من المفكرين يختصرونها إلى وظائف رئيسة : الإخبار، التربية والتعليم، التسلية ، الترويج.. حيث يعتبرون أن بقية الوظائف متضمنة بشكل أو بآخر ضمن بقية الوظائف .

في عملية استعراض للآيات الكريمة في سورة يوسف فلا بدّ من إبراز التالي :

من حيث الوظيفة الإخبارية :

قبل أن نورد الوظيفة الإخبارية التي تضمنتها سورة يوسف لا بدّ أن نذكر أن الخبر بحد ذاته يروى كقصة في نشرات الأخبار ويطلق عليه في المصطلح الإنجليزي تعبير story للعارفين بفنون الإعداد في غرفة الأخبار في المؤسسات التلفزيونية وذلك لإعتبار أهمية رواية الخبر كقصة للمشاهدين مما يضفي عليه نكهة خاصة تساعد على المتابعة وهي غاية من غايات المنتج الذي يسعى للحفاظ على المتابعين دون التغيير إلى مصدر إخباري آخر. وسيكون للقصة والحديث عن القصص إفراد آخر في سياقاتها ..

أما الآيات التي تظهر من خلالها الوظيفة الإخبارية فهي كثيرة ..مثل :

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا /نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ / إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ / إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا / وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ / قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ / وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ / إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[3]... وغيرها كثير من الآيات التي وردت بالصيغة الإخبارية .. بل إن السورة ملآى بالآيات الخبرية والخبر هنا على مستويات متعددة :

المستوى الأول هو الخبر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ومن خلاله للأمة جمعاء.

المستوى الثاني هو الخبر في قول يوسف لأبيه وروايته عن الرؤيا التي رآها في منامه.

---

[1] محمد كمال الدين إمام ، عن كتاب وظيفة الإخبار ص 112

[2] محمد كمال الدين إمام ، عن كتاب وظيفة الإخبار ص 112

[3] سورة يوسف، الآيات : 2-3-4-5-6-7

المستوى الثالث هو خبر سجود الكواكب لسيدنا يوسف عليه السلام .

بل إن مستوى مميزاً من الخبر ورد في التنبأ بما سيحصل مستقبلاً وبما لا شك فيه ، وحاشى لله تعالى من شك في آياته، ونراه في قوله الله ﷻ : "**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**"[1]

والمستويات الخبرية الأربعة هذه لها مجموعة من الأهمية والتوظيف والدلالة ما لها مما قد يظهر لنا ومما قد يخفى لبلوغ الإعجاز والعظمة في كلام الله تعالى مبلغاً نعجز عنه بلا شك.

فالخبر بحد ذاته يوظف أعظم توظيف في اهتمام الإنسان خاصة فيما قد فعله الإنسان بأخيه الإنسان أو فيما قد يفعله في ملفات متصلة .. ويرتفع الخبر ليكون قصة ذات حبكة أو حبكات إذا ما كان فيها من الظلم والبأس والضرر ما فيها، خاصة إذا ما نظرنا إلى الأشخاص الذين يحتلون مناصب الأبطال من القصة فهم أنبياء الله تعالى وقد كانوا سادة في أقوامهم .. فالقصة هنا تأخذ مجرى من الأهمية بمكان بل وتصبح الأمكنة كلها ذات أهمية والأحداث ذات تسلسل .. وينتظر القارئ لكتاب الله تعالى هذا التسلسل بشغف عجيب .. تسلسل في الجغرافيا والتاريخ في صورة سيميائية مميزة وكأن الوحي يتنزل على كل قارئ في ساعته اللحظة .. وهذا في منتهى الإعجاز القرآني ..

يذكر الشيخ صالح المغامسي[2] في تفسير قوله تعالى : " **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**" أن عدداً من العلماء فسر " **أحسن القصص**" باعتبار أن الخبر في القصة أن كل من ذكر في قصة يوسف كان مآله السعادة فيوسف آوى إلى الملك والملك الذي رآى الرؤيا أسلم والساقي عظم حاله وإمرأة العزيز تابت ودخلت في الإسلام، وإخوة يوسف تاب الله عز وجل عليهم ويعقوب عليه السلام ردّ إليه بصره وفرح بإبنه وجلس على سرير الملك فجل من ذكر بالقصة [3] كان مآلهم السعادة ، فهذا من قوله تعالى : " **أحسن القصص**"، حتى أن الراوايات التي يعمل على تنفيذها تتجه عاجة إلى ختمة يحددها المخرج ، وغالباً ما يسعى لصياغة خاتمة تكون نؤثرة جداً في اشتهار رواجها بين المشاهدين .. ونحن ومع كل قراءة لسورة يوسف ننتظر نهاية القصة التي تسعدنا بانتصار الحق وظهور الغلبة لأهل الله على أهل الكفر والظلم ، فنشعر بهذا الحسن والله تعالى أعلم .

من حيث وظيفة التربية التعليم :

تعتمد آيات سورة يوسف على مجموعة كبيرة من المضامين التربوية والتعليمية فافتتاح السورة جاء بالتأكيد على التبيان في كتاب الله تعالى وجعله المرجع الأول للبشريّة والخلاص لها من كلّ ما قد يعتريها من شؤونها، ثم هو أكّد عربيّة القرآن الكريم بهدف استخدام العقل البشري وفي ذلك ردّ على كل من طالب بإبعاد العقل عن الفهم الإسلامي، ثم تأتي الأفضليّة في حسن القصص واعتبارها ذات مغزاً كبيراً ودوراً وظيفياً مهماً في مضامين الوحي الإلهي وهو الذي أحدث تغييراً من الغفلة إلى الإيمان بالله تعالى.

---

[1] سورة يوسف، الآية : 15

[2] https://www.youtube.com/watch?v=h32DFqIFC-M

[3] باستثناء الرائي الآخر الذي أكلت الطير من رأسه.

وتبدأ التربية في الأسلوب الخطابي الذي تحدث به يوسف عليه السلام مع أبيه إذ قال له : " **يا أبتِ**" وفيها ما فيها من الإجلال والإحترام ثم طلب الأبوة والرعاية والإهتمام فلم يقل له يا أبي أو يا والدي بل لم تكتف الآية بالايراد دون يا أبتِ فلم يقل جل جلاه : إذ قال يوسف لأبيه إني رأيت ... بل قال : " **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ** ... "[1] الآية . وفي ذلك إلقاء الحال والمآل على الأب الرؤوف بابنه ، الحنون عليه ...

وتتوالى المعاني والوظائف التربوية في تعامل يعقوب عليه السلام مع الرؤيا:"**يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِك**" [2].. فامره بكتمان الرؤيا على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر[3]ثم إرجاع ذلك للشيطان :"**إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**"[4].. العدو المبين للإنسان في الأرض .وفي هذا توظيف للأمن الإعلامي بحيث ينبغي أن يكتم المؤمن بعضاً مما قد يجد مصلحة في عدم إعلانه، وليس من الضرورة أن يتم الإعلام والإخبار عن كل ما قد يعرف وفق المصالح المرسلة التي يقدرها أصحاب الرأي والمشورة .

والتوظيف هنا يمتد من إرجاع الأمر كل الأمر لله تعالى: "**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ**"[5] .. إلى أهمية فهم الناس بأفرادهم وجماعاتهم للمعاني والتدبر والتعلم منها: "**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**"[6].. فالآيات والدروس تتأتى لمن يسأل ويبطل الباطل ولتكون عبرة للأمم من بعد ..

ومن ثم فإن الآيات تعرض في حبكة درامية لا مثيل لها تلك الصور الذهنية من العلاقات الإجتماعية التي سادت_ وتسود _ بين الإخوة .. الإخوة الذين يفترض بهم أن يكونوا عضداً، بعضهم للبعض الآخر .. إلا أن الحسد والغيرة والحقد الشيطاني الموروث من عهد أولاد آدم عليه السلام، تتحكّم في هذه العلاقات الإجتماعية: " **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**"[7]فهم اعتبروا أنهم أحق بالمحبة من أخيهم[8]وهذا يذكرنا بقول الشيطان الرجيم لله ﷻ: "**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** "[9] فالحضور الشيطاني دائم، خاصة في التحريش بين العباد عبر إيهامهم بالأفضلية بين بعضهم، بغية إخراجهم من الرعاية الإلهية .. بل ويتنقل هذا التحكم إلى المواقف فالتصرفات السلوكية والتي لا تخرج فقط عن آداب التربية العامة والتربية العائلية بل إلى إقتراف السوء عبر ظهور النيّة في القتل، ثم العدول عنها إلى الإبعاد القسري

---

[1]سورة يوسف، الآية: 4

[2]سورة يوسف، الآية: 5

[3]إبن كثير،قصص الأنبياء، دار إبن حزم، بيروت،2002، ص:181.

[4]المرجع السابق.

[5]سورة يوسف، الآية: 6

[6]سورة يوسف، الآية: 7

[7] سورة يوسف، الآية: 8

[8]إبن كثير،قصص الأنبياء، مرجع سابق، ص:182.

[9]سورة ص، الآية: 76

:" **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**"[1] وكل ذلك عن طريق أنواع شتى من ضروب الخداع وإطلاق الشائعات بعد تهيئة الرأي العام الذي يؤيد ويساعد على إتمام المهمة . "**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** " فلا بدّ من الخديعة إبتداءً وذلك عبر إيهام الأب بالمحبة والإهتمام بأخيهم حتى يسلمهم إياه .. طالبين إستئمانهم عليه .. فهم طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، ,ان يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم..[2] وتستكمل الحبكة عبر طلبهم في توظيف كبير للعهد:" **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** "[3]. وتتجلى التربية الربّانية بالتأكيد على المعيّة الإلهية والمراقبة الدائمة للأعمال والأفعال: "**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**"[4] فالخبر والنبأ على مستويات كما ذكرنا سابقاً وهذا من ضروب الإعجاز في كلام الالله تعالى ومن منتهى التوظيف الإخباري ، إلا أن الله تعالى أخبر نبيه يوسف عليه السلام، ستخبرهم بما فعلوا إذ هم لا يشعرون ..وهو من ألطاف الله سبحانه في رعاية أوليائه الصالحين، ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: "**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**" [5] .. من عباد الله تعالى على إمتداد الأزمان .

والوظيفة التربوية ليست فقط على الصعيد العائلي أو الإجتماعي بل هي تمتد إلى المستوى الشخصي .. فحاجات الإنسان ودوافعه وغرائزه هي من المحركات التي تهدد البنية التربوية سواء كانت الأهواء تعتري الإنسان تجاه إنسان آخر .. أو كان الإنسان يتعرض لأهواء الآخر .. " **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ**" [6] وهي التي احضنته في بيتها .. خاصة أن المشهور أن الذكر هو الذي يعرض أهواءه على الأنثى .. هنا تكمن الحبكة في العكس حيث أن يتعرض الذكر للفتنة من قبل الأنثى .. وأي أنثى .. إنها جميلة جميلات مصر .. وسيدة في قومها ودارها .. " رجل دعته إمرأة ذات منصب وجمال ... " هنا التربية .. " **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**" [7].. والسبب: "**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**"[8].

والنتيجة كانت : كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ .. والسبب : "**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** " [9]... هنا التربية الربانية فالعباد المخلصين هم في الرعاية والكنف الرباني ..

---

[1]سورة يوسف، الآية: 9

[2]إبن كثير،قصص الأنبياء، مرجع سابق، ص: 183.

[3]سورة يوسف، الآية: 12

[4]سورة يوسف، الآية: 15

[5]سورة يوسف، الآية: 22

[6]سورة يوسف، الآية: 23

[7]سورة يوسف، الآية: 23

[8]المرجع السابق.

[9]سورة يوسف، الآية: 24

والرعاية الربانية ليست آنية بل ممتدة ومستمرة: "**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا**" [1].. ويأتي الأدب في القناعة والمصلحة وافتداء النفس بصنوف العذاب: "**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**" [2] مع التأكيد أن ذلك رعاية من الله تعالى في العصمة عن معاصيه والدعاء: "**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**"[3].. فالعارفين العالمين هم من يلزمون أمر الله تعالى ويجتنبون نواهيه ..

ويحفظ الله تعالى لعبده المعتصم به مكانته بين الخلق: "**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ...إن هذا إلا ملك كريم**" [4].. ترى لو نزل يوسف إلى رغباتهم ، هل بقي في هذه المكانة العلية والمتعالية عن الصغائر أم كان نزل إلى درك سفلي مع العصاة الهالكين ؟.. "**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ**"[5].. إنها منتهى آمال العبد الطائع: "**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**" [6] سميع لعبده عليم بسرائره ..

ويتتابع التوظيف التربوي المعجز بالإعتراف الدائم للعبد المؤمن بما لله تعالى عليه من فضل " **ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** "[7].ثم إنه لمن الظاهر أن يوسف عليه السلام كان يحاول كدأب أنبياء الله ورسله أجمعين إستغلال كل الفرص المؤاتية للدعوة إلى الله تعالى وهي فرصة مهمة حيث يطلب منه السجينان العون في لحظات يفتحون فيها آذانهم بل قلوبهم لكل كلمة يقولها يوسف لهم .. و يوظف يوسف عليه السلام تلك اللحظة في التربية والتوجيه وتعميق الوعي والمحاججة العقلية:" **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**"[8].. بل ويوظف في دعوته وإعلامه أكثر من وظيفة ، فالخبر والتربية والتعليم والتوجيه والتعبئة والترويج والتنمية .. كلها وغيرها:" **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** "[9]إختصر فيها أمور الدين والدنيا .. من الأزل إلى الأبد .. الصراع كل الصراع بين الحق والباطل .. الخير والشر .. بين عباد الله تعالى وموحديه من جهة .. وبين أعداء الله تعالى والمشركين به من جهة ثانية ..

ثم هي تتوالى الدروس التربوية من خلال تفاصيل الأحداث وتسارعها وذلك عبر التأكيد المتكرر أن العون من الله تعالى: " **فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ**" [10]فالغوث والمهونة لم تأت من عدم أو من الطبيعة وإنما بتدبير مدبر وغوث ، ثم في إعادة التأكيد

---

[1]سورة يوسف، الآية: 26

[2]سورة يوسف ،الآية: 33

[3]سورة يوسف، الآية: 33

[4]سورة يوسف، الآية: 31

[5]سورة يوسف، الآية: 34

[6]سورة يوسف، الآية: 34

[7]سورة يوسف، الآية:37

[8]سورة يوسف، الآية:39

[9]سورة يوسف، الآية: 40

[10]سورة يوسف، الآية: 49

وعلى لسان إمرأة العزيز نفسها:" **الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**"[1]وذلك بعد أن جربت عاقبة الخيانة والظلم حيث لا مفر من الحساب ولو بعد سنين ،ما أدى بها إلى الإعتراف بصدق يوسف عليه السلام وبفعلتها الشنعاء ..

وتبدأ النتائج الإيجابية في تغيير حتمي للأحداث:" **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**" [2].

ثم تتوالى الوظائف التربوية في تعامل يوسف عليه السلام مع إخوته إذ أن هدفه هو توبتهم وصلاحهم وإعادة لم الشمل .. شمل العائلة التي فرقها الحسد وفرقتها الغيرة والبغضاء فقطع الطريق أمام المفسدين أولى من الإنتقام ، وهو متاح ، بل إن أهم ما يمكن تدبيره هو إعادة جمع العائلة واللقاء بالأب الحزين، فمقارعة الإخوة وتدبير المكيدة لهم، المكيدة التي توقعهم في خيار لا مفر منه، وهو الإعتراف بالخطأ والتوبة إلى الله تعالى، وجاء ذلك جلياً في محاورتهم، سواء بين يوسف وإخوته أو بين يعقوب عليه السلام وأبنائه، ومرّة أخرى في تسليمهم ولده الثاني ثم في توكيل الله تعالى شاهداً على ما دار بينهم من حديث بالرغم من إمعان التفكير في حيلة ما ترد عنهم ما قد يكون قد حيك لهم:"**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**"[3] مع التأكيد على المرجعية لله تعالى والتسليم لقضائه:" **وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**" [4] ثم يتكرر التوظيف التربوي في اجتراح الحيلة التي تبقي على الأخ الثاني مع يوسف عليه السلام ما دفع في إخوته للكشف عما تبقى في نفوسهم:" **قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ**"[5] إلا أن المنهاج التربوي والخطط الإعلامية لا تسمح بالتلهي بهذه التفاصيل: " **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ** "[6] واكتفى بالقول: " **قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**"[7]،هنا تبدأ التربية الربانية تؤتي ثمارها فيهم إذ:" **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ**"[8]حيث بدأت التضحية بالنفس بدل أخيهم، وقد لا يكون هذا حبّاً له بقدر ما عرفوا من درجة ذنبهم بأخيهم يوسف وبأبيهم المخدوع .. ولا يريدون تكرار ذلك معه، خاصة مع قرب عهدهم لأبيهم وشهادة الله تعالى على هذا العهد .. وكأن ذلك مؤشراً على بداية توبتهم وعودتهم إلى جادة الصواب، ويزداد ذلك في قولهم :" **أولَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي** " [9] ثم في تفويض الحكم لله العلي: " **أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**" [10]ورغم

---

[1]سورة يوسف، الآية: 51

[2]سورة يوسف، الآية: 56

[3]سورة يوسف، الآية: 67

[4]المرجع السابق

[5]سورة يوسف، الآية: 77

[6]المرجع السابق

[7]المرجع السابق

[8]سورة يوسف، الآية: 78

[9]سورة يوسف، الآية: 80

[10]المرجع السابق

الهول الذي قد أحدثوه في أخيهم والضرر الذي ألحقوه به مذ أبعدوه عن أبيه وتربصوا به نية القتل ثم بالرمي في البئر ثم في بيعه بالثمن البخس إلا أن التوظيف التربوي يعلوا على كل ذلك في درس من التوجيه والإرشاد والتنمية الإجتماعية للأمة على امتداد الأزمان:" **قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**"[1] وتأتي نتيجة كل ذلك: " **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**"[2]وكأنها نتيجة حتمية وسنة كونية للصبر والإحتساب والتسليم ثم بمقارعة الخطوب بالتربية الحسنة والإحتواء تمهيداً وإفساحاً في المجال أمام التوبة وطلب الإستغفار ..

على أن كل تلك المعاصي مرجعها إلى الشيطان:" **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**"[3] والمرجعية دائماً لله العلي:" **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**"[4].

ثم يتوج التوظيف التربوي لنبينا محمد ﷺ:" **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** "[5]،" **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**"[6] ومن ثم:" **حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**"[7]، وتعود الإشارة التربوية مع الربط القصصي :" **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** "[8].. لمن أراد أن يستفيد من الأحداث فيعتبر:" **وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**"[9] .. إنه التوظيف التربوي والإرشاد وتعميق الوعي والهداية لسائر المؤمنين من عباد الله ﷻ.

وفي الحديث عن وظيفة التلسلية والترفيه ، فالقصص القرآني يلعب دوراً في التسلية عن عباده ، بل إن سورة نفسها قدنزلت في حرحلة حرجة في عام الحزن الذي مات فيه أبوطالب عن النبي محمد ﷺ وماتت فيه خديجة وفيه عرض رسلول الله ﷺ نفسه على ثقيف فأغروا به سفاءهم، فهو يهاجم من الكفار ويغرى به الصغار، ويتنكر له الناس، ويفقد القلب الحنون الذي يواسي ويعطف، والعم البار الذي يقف بوجه المعاندين المكابرين.[10]

والقرآن الكريم لم يعتمد أسلوباً واحداً لإيصال رسالته إلى الناس [11]، بل تعددت أساليبه وتنوعت، فهو حيناً يعتمد أسلوب الحوار، وحيناً آخر يعتمد أسلوب ضرب المثل، وتارة يعتمد أسلوب التربية النفسية والتوجيه الخلقي، إلى غير ذلك من الأساليب التي لا تخفى على من تأمل وتدبر كتاب الله العزيز.

---

[1]سورة يوسف، الآية: 92

[2]سورة يوسف، الآية: 97

[3]سورة يوسف، الآية: 100

[4]المرجع السابق

[5]سورة يوسف، الآية: 103

[6]سورة يوسف، الآية: 108

[7]سورة يوسف، الآية: 110

[8]سورة يوسف، الآية: 111

[9]المرجع السابق

[10]عميرة، عبد الرحمن، منهج لاقرآن في تربية الرجال، دار الجيل،بيروت،1991، ص:180-181 بتصرف.

[11]http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=174363()

وأسلوب القصة من الأساليب التي اعتنى القرآن الكريم بها عناية خاصة؛ لما فيها من عنصر التشويق، وجوانب الاتعاظ والاعتبار. وقد ألمح القرآن إلى هذا في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى"**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**" [1].

القصد الرئيس من القصص القرآني هو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية؛ ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله، وشقاوة من عصاه؛ وهذا يعني أن القصد من القصص القرآني ليس السرد والرواية، وإنما ما تحمل تلك الأخبار والقصص من مواعظ وعبر، ترشد قارئها إلى اتباع سبل الفلاح والرشاد، وتجنبه طرق الزيغ والضلال. قال أبو عبيد : إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، إنما هو حديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم. وقريب من هذا ما ذكره ابن عاشور من "أن من مقاصد القرآن في ذكر القصص الماضية أن يعتبر بها المسلمون في الخير والشر ." وفي ذلك استخدام لأكثر من وظيفة إعلامية معاً ، فالتسلية والترفيه تأتي مع الوعظ ةوالإرشاد ، والأخبار ، وتعميق الوعي .. ثم التعئبة ضد أ'داء الله تعالى وأعداء دينه .. مع الترويج والدعوة .. في أسلوب معجز لا متناهي الإعجاز .. جل جلال الله وتعالى في آياته وحكمته ..

" **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**" [(2)].

صدق الله العظيم

---

[1]سورة الأعراف، الآية: 176

[(2)]سورة القمر، الآيتان: 4-5